

تجربة وادي ميزاب في ترقية الصناعات التقليدية

سليمان ناصر

جامعة ورقلة

مقدمة .

- 1 - عوامل نشوء الصناعات التقليدية في المجتمع الميزابي.
 - 1 - 1 - العامل الطبيعي.
 - 1 - 2 - العامل الاقتصادي.
 - 1 - 3 - العامل الاجتماعي والتربوي والثقافي.
- 2 - أهم منتوجات الصناعات التقليدية في وادي ميزاب.
 - 2 - 1 - صناعة الملابس الصوفية والخفيفة المستعملة محليا.
 - 2 - 2 - صناعة السجاد والأفرشة.
 - 2 - 3 - صناعة الأثاث المنزلي.
 - 2 - 4 - المنتجات الجلدية.
- 3 - واقع الصناعات التقليدية في وادي ميزاب، وأسباب بقائها وازدهارها.
 - 3 - 1 - واقع الصناعات التقليدية بوادي ميزاب.
 - 3 - 2 - أسباب بقاء وازدهار الصناعات التقليدية بوادي ميزاب.
- 4 - آفاق الصناعات التقليدية في وادي ميزاب، وسبل تطويرها وترقيتها.
 - 4 - 1 - آفاق الصناعات التقليدية بوادي ميزاب.
 - 4 - 2 - سبل تطوير وترقية الصناعات التقليدية بوادي ميزاب.

الخاتمة.

المراجع.

تجربة وادي ميزاب في ترقية الصناعات التقليدية

مقدمة :

تحل الصناعات التقليدية مكانة هامة في حياة المجتمع الميزابي نظرا لعدة عوامل منها حب هذا المجتمع للعمل بجميع أشكاله، إضافة إلى حبه للفنون والزخارف التي تجسدها هذه الصناعات والتي تتماشى مع الذوق الرفيع والفترة السليمة. وإذا كانت هذه الصناعات التقليدية قد نشأت وازدهرت في هذا المجتمع خلال بعض الفترات، فإنها قد عانت أيضا من الركود خلال فترات أخرى، وتحت تأثير ظروف مختلفة. ترى كيف نشأت الصناعة التقليدية في المجتمع الميزابي؟ وما هي آفاقها في المستقبل؟ وما هي التوصيات أو الاقتراحات التي يمكن الأخذ بها للنهوض بقطاع الصناعة التقليدية في الجزائر بشكل عام وفي المجتمع الميزابي بشكل خاص؟، ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذه الورقة.

1 - عوامل نشوء الصناعات التقليدية في المجتمع الميزابي:

بعد سقوط الدولة الرستمية في تيهرت سنة 296 هـ / 909 م نزح الإباضية إلى منطقة وارجلان (ورقلة حاليا)، وبعد قضاء حوالي قرن من الزمان في إعمار هذه المنطقة إلى جانب سكانها الأصليين، نزح عدد كبير منهم مرة أخرى إلى منطقة وادي ميزاب غرب منطقة وارجلان فأسسوا فيها مدنهم السبعة (العطف، مليكة، غرداية، بنورة، بني يزقن، القرارة، بريان) كما اهتموا أيضا بإعمار المنطقة بما تتطلبه من وسائل الحياة فحفروا الآبار واستصلحوا الأراضي الزراعية بالرغم من ضيق مساحتها في هذا الوادي، واهتم عدد قليل منهم بالرعي نظرا لكون المنطقة صخرية وقاحلة، كما اهتم عدد قليل آخر بعد ذلك بالصناعات التقليدية، تبعا لبعض العوامل أهمها :

1 - 1 - العامل الطبيعي :

إن اتجاه عدد من أبناء المنطقة - وإن كان محدوداً - إلى العمل في قطاع الرعي ولد لدى سكان المنطقة فكرة الاستفادة من منتجات هذا القطاع في صناعات منزلية أهمها الملابس الصوفية للرجال والنساء، واستغلال جلود الحيوانات في صناعة بعض الأدوات المستعملة في الحياة اليومية، ثم تطورت الفكرة إلى استغلال المنتجات الفلاحية في بعض الصناعات التقليدية كاستعمال الأعشاب لصناعة بعض العقاقير للغذاء أو للعلاج، وعموما وبما أن الإنسان ابن بيئته فقد حاول الميزابيون استغلال الموارد الطبيعية المتوفرة لهم قدر الإمكان.

1 - 2 - العامل الاقتصادي :

ذكرنا سابقا بأن الميزابيون استوطنوا منطقة جرداء قاحلة في جنوب الجزائر، فرضت عليهم أن يشمروا على ساعد الجد، وأن يسعوا وراء لقمة العيش، لذا كان عدد كبير من أبناء المنطقة يغترب في مدن الشمال للعمل أساساً في التجارة، بينما يبقى عدد قليل منهم في ربوع الوادي يشتغل بالفلاحة نظرا لضيق الأراضي الفلاحية بالمنطقة، وقد كان ضمن هذا العدد من يشتغل بالصناعات التقليدية بالموازاة مع الفلاحة نظراً لارتباط الأولى بالثانية واعتمادها عليها، وقد كانت ميزة المنتج التقليدي في البداية أنه كان يوجه للاستهلاك الفردي وليس

للتسويق التجاري.

في أثناء الثورة التحريرية وبصورة أوضح بعد الاستقلال، وبعد قدوم الأجانب إلى الجزائر للسياحة أو للعمل، تفرغ عدد من أبناء ميزاب للصناعات التقليدية المخصص منتوجها أساسا للتسويق التجاري، ولا زالت هذه الصناعات تتراوح وضعيتها بين الازدهار والركود، حسب الظروف العامة التي تمر بها الجزائر.

1 - 3 - العامل الاجتماعي والتربوي والثقافي:

إن اشتغال عدد من أبناء ميزاب بالصناعات التقليدية يعود إلى ظروف اجتماعية وثقافية تسود هذه المنطقة يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- حب الميزابيين للعمل والجد والاجتهاد وبغضهم للكسل والبطالة، يجعل منهم جميعا عمالا في أي قطاع من القطاعات؛ فكيف الأمر بمن يعشق الفنون والزخرفة كهواية فطرية لا يجد سبيلا إلى إشباعها إلا بالعمل في هذا القطاع.

ب- إن بعض الحرف التقليدية تعدّ إرثا ثمينا لكثير من العائلات، حيث مورست فيها أبا عن جد، فكان الحفاظ عليها والتمسك بها هو حفاظ على تاريخ العائلة.

ج- حب الميزابيين لمنطقتهم وتاريخهم الذي تعرض إلى الكثير من التشويه، جعلهم يسعون إلى التعريف بعاداتهم وتقاليدهم لكل زائر لمنطقتهم، فكانت المنتجات التقليدية إحدى وسائل هذا التعريف.

2 - أهم منتوجات الصناعات التقليدية في وادي ميزاب :

إن المنتجات التقليدية في منطقة ميزاب كثيرة ومتنوعة، لكن يمكن توزيعها على مجموعات أساسية منها:

2 - 1 - صناعة الملابس الصوفية والخفيفة المستعملة محليا :

وتتمثل في صناعة الملابس التي تعتمد على الصوف كمادة أولية، مثل لحاف المرأة والذي يسمى بلهجة المنطقة " أحولي "، وكذلك الملابس الشتوية للرجال مثل القشايبة المصنوعة من الصوف، أو البرنوس المنسوج سواء من الصوف أو الوبر.

كما أن هناك عدد كبير من العائلات تختص في صناعة الملابس الخفيفة المستعملة محليا، مثل السروال الفضفاض الذي لا يكاد يُصنع بجودة إلا في هذه المنطقة، خاصة منه ذو اللون الأبيض، ويمكن أن نضيف إليه بالتبع العباءة والطاقيّة البيضاء، واللذان يعتز بلبسهما كل ميزابي.

2 - 2 - صناعة السجاد والأفرشة :

تشتهر منطقة وادي ميزاب بصناعة أنواع مختلفة من السّجاد والأفرشة على غرار بعض المناطق الأخرى في الوطن، ولترويج هذا المنتج ذو الشهرة العالمية تحرص مديرية السياحة والصناعات التقليدية على إقامة تظاهرة سنوية كبرى خلال فصل الربيع عادة، وتدعى بعيد الزربية، وذلك للعرض والبيع وعقد مختلف الصفقات.

كما يدخل في هذا الإطار الفرش التي تستعملها العروس لتغطية الأرض أو السرير أو الجدران في غرفتها، وأهم ما تحرص عليه العائلات في هذا الشأن هو أن تتسج العروس هذه الأفرشة بيديها قبل الزواج، وذلك كنوع من التنشئة على الاعتماد على النفس وتحمل المسؤولية.

2 - 3 - صناعة الأثاث المنزلي :

يختص بعض أبناء المنطقة في صناعة الأواني المنزلية المصنوعة من الفخار، كالصحون والكؤوس والقلل، إلا أن هذا النوع من المنتوجات لا يمكن أن ينافس نظيره من المناطق الأخرى في الجودة أو التكلفة، نظرا لعدم توفر المادة الأولية لهذه الصناعة (وهي أنواع خاصة من الطين) في هذه المنطقة.

كما أن هناك من يختص في صناعة الأواني النحاسية، وهو أيضا لا يمكن أن يصل إلى جودة النحاس المنتوج في قسنطينة أو تلمسان لنفس الأسباب المذكورة سابقاً.

2 - 4 - المنتجات الجلدية :

بالرغم من توفر الجلود بالكميات الكافية في هذه المنطقة، فإن المنتجات الجلدية ضئيلة ولا تتسم بالتنوع، فهي تقتصر على صناعة الأحذية وسروج الخيل وبعض الأدوات المنزلية، وهي منتجات لا تسوّق بشكل واسع، وهناك كميات كبيرة من الجلود تباع بشكل خام إلى المؤسسات الصناعية الحديثة، ليتم بها صنع الملابس والأحذية والمحافظ.

وبشكل عام فإن الجدول التالي يبين أنواع الصناعات التقليدية وعدد الحرفيين والتعاونيات التي يشغلها كل نوع، إضافة إلى العدد الإجمالي للمستخدمين وهذا لمجموع ولاية غرداية.

توزيع الحرفيين والتعاونيات والمستخدمين على الحرف التقليدية

لولاية غرداية في: 2001/12/31

الرقم	نوع النشاط	عدد الحرفيين	عدد التعاونيات الحرفية	عدد المستخدمين الإجمالي
01	نشاطات حرفية متعلقة بالتغذية	40	--	120
02	عمل الأرض ، زخرفة (Plâtre)	57	04	100
03	مناجم ومقالع الحجارة	20	--	60
04	صناعة المعادن	30	02	111
	أعمال حرفية متعلقة بالأبنية	04	--	10
	أعمال الخشب، ورق، ورق مقوى	60	--	180
05	أعمال الصوف، النسيج، الجلود	2096	33	2700
06	أعمال متعلقة بمنتجات مختلفة	39	05	90
07	خدمات مقدمة للمؤسسات والجماعات المحلية والإدارات	10	--	30
08	خدمات وإصلاحات متنوعة مقدمة للمنازل والعائلات	10	--	20
10	المجموع	2366	44	3421

المصدر : Monographie de la wilaya de Ghardaia : D.P.A.T, Ghardaia, 2002

3 - واقع الصناعات التقليدية بوادي ميزاب وأسباب بقائها وازدهارها :

بعد التعرض لعوامل نشوء الصناعات التقليدية بوادي ميزاب وأهم منتوجاتها هذه الصناعات، يجدر بنا أن نقيم هذا القطاع بإعطاء نظرة عن وضعيته الحالية، وأسباب بقائه وازدهاره

في بعض الفترات.

3 - 1 - واقع الصناعات التقليدية بوادي ميزاب :

لا يخفى على أحد مدى الارتباط الوثيق بين قطاع الصناعات التقليدية وقطاع السياحة، إذ أن السائح الوطني أو الأجنبي الزائر للمنطقة يسعى دائما إلى اقتناء ما يذكره بهذه المنطقة بعد رجوعه إلى مدينته أو وطنه، وأفضل شيء يمثل المنطقة هو منتجاتها التقليدية التي لا تتواجد بنفس الصفات في أماكن أخرى من الوطن.

لذا فإن وضعية الصناعات التقليدية في الجزائر كانت تتراوح دائما بين الازدهار والركود منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، فبعد الاستقلال تميزت الأوضاع الأمنية بالاستقرار والأوضاع الاقتصادية بتوفر الموارد المالية، لذلك سعت الدولة إلى إقامة مجموعة من هياكل الاستقبال السياحية متفاوتة الجودة، إلا أن المشكل هو أن الجزائر لم تكن تمتلك تقاليد عريقة في قطاع السياحة شأنها في ذلك شأن الكثير من البلدان الاشتراكية آنذاك، وبالرغم من ذلك فقد توافد السياح خاصة منهم الأجانب على المنطقة بأعداد كبيرة، مما ساعد على ازدهار الصناعات التقليدية كنتيجة لما ذكرناه سابقا.

مع بداية التسعينيات ومع تدهور الأوضاع الأمنية تدريجياً انخفضت معدلات السياحة بشكل كبير، الوطنية إلى مستويات متدنية والأجنبية إلى الصفر، مما أدى إلى إغلاق الكثير من المرافق السياحية، وبالتالي الركود الكبير في تسويق منتجات الصناعات التقليدية، وهو ما أدى إلى مغادرة عدد كبير من اليد العاملة لهذا القطاع.

ومع السنوات الأولى للقرن الواحد والعشرين ظهرت بوادر التحسن في الأوضاع الأمنية وبشكل مضطرد، مما ساعد على التحسن النسبي في السياحة المحلية وبالتبعية تحسن نسبي في قطاع الصناعات التقليدية، أما السياحة الأجنبية فقد بقيت معدلاتها ضعيفة جداً بالرغم من هذا التحسن، ويعود ذلك إلى توافد السياح الأجانب على أقصى الجنوب بصورة أكبر وأيضاً بسبب الظروف الأمنية التي لا يزال هؤلاء السياح لا يأتمنونها بشكل كافٍ بسبب قرب منطقة غرداية من مدن الشمال، ولا أدلّ على الركود الذي لا يزال يعانيه قطاع الصناعات التقليدية بولاية غرداية من أعداد اليد العاملة التي يشغلها هذا القطاع، والتي تبلغ 3421 عاملاً في نهاية سنة 2001، وهو عدد ضئيل جداً بالنظر إلى العدد الإجمالي لسكان الولاية والذي يتجاوز 500000 نسمة، إضافة إلى كونها منطقة تجارية وسياحية، ويتوزع هذا العدد على القطاعات الفرعية الرئيسية كما يلي:

توزيع الحرفيين وعمال التعاونيات الحرفية والأجراء على القطاعات

الفرعية للصناعات التقليدية بولاية غرداية في: 2001/12/31

القطاع الفرعي	عدد الحرفيين	عدد عمال التعاونيات الحرفية	عدد الأجراء	المجموع
الصناعات التقليدية للفنون	2096	33	571	2700
الصناعات التقليدية لإنتاج السلع	80	05	65	150
الصناعات التقليدية لإنتاج الخدمات	190	06	375	571

3421	1011	44	2366	المجموع
------	------	----	------	---------

المصدر : Monographie de la wilaya de Ghardaia : D.P.A.T, Ghardaia, 2002

3 - 2 - أسباب بقاء وازدهار الصناعات التقليدية بوادي ميزاب :

بالرغم من مروره بفترات ازدهار وركود منذ دخول الجزائر مرحلة الاستقلال، فإن قطاع الصناعات التقليدية بوادي ميزاب لا يزال قائماً يحاول النهوض كلما سمحت الظروف العامة للوطن بذلك، وتعود أسباب هذا البقاء والازدهار (في فترات معينة) إلى بعض العوامل أهمها:

أ- العامل الاجتماعي والثقافي الذي أشرنا إليه سابقا والمتمثل في حب الميزابيين للعمل وتمسكهم بكل ما يرمز إلى تراثهم وتاريخهم وتقاليدهم.

ب- إهتمام العائلات بتكوين بناتهم داخل البيت على إتقان بعض الصناعات التقليدية، خاصة ما يتعلق منها بصناعة السجاد والملابس الصوفية، وهذا في ظل قلة مراكز التكوين المهني المتخصصة في هذا المجال.

ج- فتح فروع داخل المدارس الحرة في وادي ميزاب لتكوين البنات في الصناعات التقليدية، خاصة منها السجاد والملابس الصوفية، وذلك بعد إنهاء البنت للمرحلة المتوسطة إذا لم تكن تزال بقية تعليمها في ثانويات الدولة.

د- إقامة المعارض السنوية لتقديم والتعريف بمنتجات الصناعات التقليدية بوادي ميزاب، مما يساهم أكثر في تحسين الوضع المادي ورفع مداخيل الحرفيين، إضافة إلى إقامة المسابقات في مختلف المناسبات بين هؤلاء الحرفيين ومنح جوائز معتبرة للفائزين بتقديم أحسن المنتجات.

4 - آفاق الصناعات التقليدية بوادي ميزاب وسبل تطويرها وترقيتها :

أشرنا سابقاً إلى مدى الارتباط الوثيق بين قطاع السياحة وقطاع الصناعات التقليدية، وهناك ارتباط قوي بين السياحة والأوضاع الأمنية السائدة في الجزائر من جهة أخرى، فماهي آفاق الصناعة التقليدية في ميزاب ؟ وما هي السبل الكفيلة بتنشيط هذا القطاع والنهوض به وتطويره ؟

4 - 1 - آفاق الصناعات التقليدية بوادي ميزاب :

إن الانفراج السياسي والتحسّن التدريجي في الأوضاع الأمنية بالجزائر يجعلنا نتفاعل بمستقبل أفضل لقطاع الصناعات التقليدية بالوطن بشكل عام، وبمنطقة ميزاب بوصفها مركزاً تجارياً وقطباً سياحياً هاماً يشكل بوابة الشمال على الجنوب.

كما أن الأعداد الكبيرة من السياح الأجانب والتي كانت تزور المنطقة في السبعينات والثمانينات لا يزال يشدها حنين قوي للعودة إليها، ولا أدلّ على ذلك من العلاقات العديدة والصدقات القوية التي لا تزال قائمة منذ ذلك العهد وإلى يومنا هذا، بين هؤلاء السياح وعائلات المنطقة، لذا يبقى الأمر مرهوناً فقط بتوفر الظروف الملائمة لعودتهم واقتناعهم بتوفر الأمن والأمان لهم.

ولتجسيد هذا التفاؤل نرى أن هناك جملة من الأسباب يجب توفرها، وبعض الإجراءات التي يجب على المسؤولين اتخاذها، والتي تشكل أهم السبل لتطوير قطاع

الصناعات التقليدية بوادي ميزاب والنهوض به، ويمكن أن نورد أهمها فيما يلي:

4 - 2 - سبل تطوير وترقية الصناعات التقليدية بوادي ميزاب :

أ- يجب تحسين الوضع المهني للحرفيين، ووضع الإطار القانوني والتشريعي الملائم لنشوء التعاونيات الحرفية، مثل توفير التمويل اللازم من طرف بنوك متخصصة والاستفادة من إعفاءات ضريبية ... إلخ، كما تجب الاستفادة في هذا المجال من تجربة بعض الدول خاصة المجاورة مثل تونس والمغرب، وذلك لأن الجزائر تسير تدريجياً نحو الانفتاح على العالم والاندماج معه أكثر في إطار الدخول إلى المنظمة العالمية للتجارة، وبالتالي يجب توقع منافسة شرسة من طرف الدول العريقة في هذا المجال.

ب- إدماج التكوين في الحرف التقليدية التي اشتهرت بها المنطقة في إطار برامج التكوين المهني وفي معاهده التابعة للدولة، عوض الاقتصار في هذا المجال على المراكز والمدارس الخاصة.

ج- كما عملت الدولة جاهدة على تحسين الوضع الأمني والسير نحو الانفراج السياسي، عليها أن تفكر بعد ذلك في النهوض بقطاع السياحة لما له من تأثير قوي ومباشر على قطاع الصناعات التقليدية كما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة، وذلك بتوفير الامتيازات التي ذكرناها سابقاً لقطاع السياحة أيضاً.

د- يجب التفكير في ترقية بعض الصناعات التقليدية إلى صناعات حديثة لما لها من إقبال واسع من طرف السياح الوطنيين أو الأجانب، ولعل أوضح مثال على هذا هو ذلك المشروب المصنوع من التمور والذي يُعرف بلهجة أهل المنطقة بـ " تاكروايت "، إذ وبحكم توفر المادة الأولية لهذا المنتج بكثرة وهي التمور يمكن إقامة مصانع بالمنطقة لإنتاج هذه المشروبات بالطرق الحديثة، ثم التفكير في منتجات أخرى من نفس المادة مثل المعجون Confiture ، والأعلاف الخاصة بالحيوانات من بعض أنواع التمور اليابسة ... إلخ.

الخاتمة :

إن ترقية الصناعات التقليدية في الجزائر يعني تطوير قطاع هام من القطاعات الاقتصادية، وبحكم ما تزخر به الجزائر من إمكانات سياحية هائلة فإن هذا القطاع وفي حال النهوض به يمكن أن يساهم بشكل كبير في رفع الناتج المحلي الإجمالي، وفي تشغيل أعداد معتبرة من اليد العاملة، هذا بالإضافة إلى أن الاهتمام بهذا القطاع يعد اهتماماً بإحدى أدوات كتابة التاريخ، وحفاظاً على المقومات المجددة للشخصية الوطنية.

لذا نرجو في ختام هذا البحث من القائمين على هذا القطاع الأخذ بعين الاعتبار التوصيات والمقترحات الواردة آنفاً، وإن نجاح قطاع الصناعات التقليدية بوادي ميزاب يعد نجاحاً لهذا القطاع في الجزائر بشكل عام، كما يعد لبنة في بناء صرح الاقتصاد الجزائري الحديث.

مراجع البحث :

- 1- حمو بن محمد عيسى النورى : دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديماً وحديثاً، دار البعث، قسنطينة، 2002 .
- 2- مسعود مزهودي : الإباضية في المغرب الأوسط، جمعية التراث، القرارة / الجزائر، 1996 .

3- يوسف بن الحاج يحي الواهج : المرأة في المجتمع الميزابي، دار المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1983.

4- يوسف بن بكير الحاج سعيد : تاريخ بني ميزاب، المطبعة العربية، غرداية، 1992 .

5- BENYOUCEF Brahim : LE M'ZAB-Les pratiques de l'espace ,(S.L), 1996 .

6- Monographie de la wilaya de ghardaia : D.P.A.T , Gardaia , 2002 .